البيت الخالى

للقصصى الانجليزى برنس جريم

إنه صدى خافت لصرخة حزينة تنبعث من نافذة من نوافذ الطابق الثانى . . . لا شئ أكثر من هذا ؛ ولكن هذا الصدى هو ما كان من حفوته قد أعقب سلسلة غريبة من الوقائع . لقد ألفى أوستن شيرتن نفسه — وهو الذى كان من قبل لصا جسورا لا يرعوى — مشتبكا فى سلسلة عجيبة من الحوادث لعب فيها دور البوليس السرى

وكان عجيبا حقا أنه لم يكن إلا على مسير خمس دقائق من مسكنه فى شلسى : وكان يتقل الخطا متئدا ، نحو منزله عائدا من مشية بعد العشاء ، حين أوقفه صوت تلك الصرخة . لقد جاءت ، كما أيقن من ناحية (الغريب) الذى يقع مباشرة عن يساره ، وعلى ذلك فقد نظر مستديرا على عقبيه نظرة فاحصة إلى ذلك البيت

وكان يكتنف البيت ظلام تام . على أنه لم يكن فى ذلك الشارع من أوله إلى آخره إلا قليل من النوافذ التى يرى فيها النور . ولقد انتظر انتظارا لا شعوريا صرخة أخرى وهو واقف يرقب ، ولكن شيئا من ذلك لم يقع ، وكان الليل ساكنا كما لو أنه لم يحدث شئ غير عادى ؛ ولم يسمع أى شخص آخر كما يبدو صوتا ما ، ذلك لأنه لم يكن هناك من يرى سواء فى البيت أو فى الطريق

وقد أخذ يتساءل عما إذا كان قد تخيل كل هذا ؛ فلقد ظل يشتغل جاهدا فى حرفته إلى ساعة متأخرة ، فإن ما ذهب له من بيت كتقاش كان قد أخذ يزداد فى سرعة . ثم إنه وقف مترددا ، لأنه وإن كان قد سمع صرخة فليس فى ذلك ما يهمه ؛ وليس ذلك ما يستطيع عمله ؛ ولكن غرائزه كانت تملى عليه ألا يصغى إلى العقل ؛ وربما كان مرد ذلك إلى أنه لم يكتشف بعد فتية فى تلك الصرخة ، كما لو أنها انبعثت من بين شفتى طفلة

ثم قال فى نفسه فيما يشبه الغضب : « ألم فى الأسنان » لا بد أن ذلك الصغير المسكين يعانى نوبة من الألم

مفاجئة . . . ولكن لم لم يكن هناك أى دليل على الحياة فى البيت ؟ لم لم يكن هناك من يسرع إلى ذلك المتألم بما عسى أن يجده ؟

ليدع ذلك كله . فليس ثمة معنى من شأنه ؛ ثم إنه لن يعيره فى شىء من التردد عن الطابق الثانى وابتسم ضاحكا ، ولكنها لم تكن ضحكة مكتئبة . إنه كانت ضحكة الضيق لأنه لاحظ حينذاك لأول مرة مدى غفل عنه حتى ذلك الوقت . لقد كان البيت خاليا ، إذ كانت أسر بطبقة من الإعلانات تواقد السفلى

واستدار وعزم أن يتابع سيره إلى بيته وخطا خطوة فى سبيله — والمرة الثانية سمع صرخة ! وقسم هامسا بين أنفاسه : إنه لم يعد هناك شك يخالج ذهنه الآن . لقد كان طفلا ذلك الذى صرخ ، طفلا يتألم . وأسوأ من هذا أن الصرخة قد حدثت فجأة كما لو أن يدا قوية قد عبثت على فم الطفل . وقد حدث كل ذلك فى بيت يبدو أنه خال ! لقد غلب جبنه . . . إن فى الأمر شيئا مريبا ، شيئا يتطلب البحث

ولكنه سيهدئ الطمأنينة إلى قدميه سليقته ومكره ، واتخذ سبيله متئدا إلى الأسفل . إنه يكاد يوقن أن الشخص الذى كتم صرخة الطفل سوف يسرع إلى النافذة ليستوثق مما إذا كان قد سمع شىء خارج المنزل ؛ فإذا أبصر ذلك الشخص رجلا فى الطريق ينظر إلى أعلى فإنه يدرك أن شكا قد انبعث ، وعلى ذلك فما دام أنه قد حذر فلابد أن يأخذ حذره فيسلح قبل أن يباغت

وبينما كان شيرتن سائرا أخذ يفكر فيما يستطاع عمله . أما أنه لابد من عمل شىء فذلك ما انتهى إليه رأيه . فإن وجود طفل فى بيضة عات غليظ القلب مجرم قد أيقظت فى نفسه كل مشاعر النجدة والعطف ، تلك المشاعر التى لم تغض قط فى أغوار نفسه بحيث لا تجرؤ إلى السطح ، حتى أيام أن كان مجرما

لقد كان أوضح السبل أمامه أن يذهب إلى مخفر البوليس بقصته . ولكن لو أنه فعل فماذا عسى أن يفعل البوليس ؟ أكبر الظن أنهم سوف يصغون غير مصدقين ، وبخاصة حين يعلمون أن البيت خال ؛ وإذا فرض أنه استطاع أن يحملهم على أن يصدقوه فماذا فى طوقهم أن يعملوا ؟ وأخذ يكرر ذلك فى نفسه

إنهم لم يحصلوا على إذن قضائى لن يستطيعوا أن يقتحموا المنزل . وإنه ما لم يقدموا بينة حاسمة فليس من المحتمل أن يحصلوا على هذا الإذن . وكذلك لم يغب عن

شيرتن ما يمكن أن يفسر به الأمر من أن أحد المكلفين بالمحافظة على ذلك العقار كان يوقع بابنه عقابا يستطيع أن يزعم أنه عقاب قانوني خفيف

وابتعث مكره فكرة ، تلك أنه إذا لم يستطع البوليس أن يبحث هذه المسألة فليس من يفعل ذلك إلا هو : إنه لقادر على ذلك. أجل إن أوستن شيرتن اللص في سلف ، قادر على ذلك. إنه لم يكن قد فقد مهارته يستطيع أن يدخل المنزل دخول اللص. ولقد يقع من الأدلة هناك على ما يحمل به البوليس على عمل . ذلك أنه كما تفكر في تلك الفكرة ، أزداد ذكرها ، وازداد يقينا مما أوحت به إليه بصيرته ، وهو أن شيئا مريبا يكمن في ذلك البيت الخالي

واشتد الجدل بينه وبين ضميره. هل يعود وتوبة واحدة كما كان شيرتن القديم ، وبهذه الحيلة يحاول أن يصل إلى دخول ذلك المنزل ؟ إن هذا العمل لا يخلو بالضرورة من خطر ، ولكن ذلك الخطر إنما يغريه بالإقدام ، لأنه يحب الخطر من أجل الخطر في ذاته ، ولأن الفكرة به منه ينعش خياله ، ويزيد ثقته في اعتباره . وهو يخشى من ناحية أخرى أنه إذا صرف فكره إلى هذه المغامرة الجديدة فإنه قد يمضي في تنفيذها ، ومن ثم يتعرض لأن يؤخذ بفعله ، ولو أنه لا يبتغي هنا مغنما لنفسه . وإنما يعمل في سبيل طفل معذب

وخسر ضميره المعركة . فإنه منذ ثلاث سنوات لم يفعل فعل اللص . لم يفعل ذلك منذ أن أخذ يسوق لذة الفن ومنذ أن أخذ يطرد نجاحه كنقاش : ولكنه رأى أن إتيانه هذا العمل مرة أخرى مغرية أشد الإغراء ، وبخاصة إذا كان غرضه هو ذلك الغرض النبيل ، يضاف إلى ذلك أن الظروف مواتية له بصورة خاصة ، فإنه في دقائق قليلة يستطيع أن يصل إلى بيته ، فيجمع هناك ما يلزم من أدوات لما هو بسبيله من عمل ثم يعود إلى البيت الخالي . أما ماذا عسى أن يحدث بعد ذلك ، فليدع الزمن يبته ، على هذا فقد أسرع الخطى صوب منزله فجأة . لقد تغلب عزمه . إن أوستن شيرتن سوف يعود لصا مقتحما ليلة واحدة ليس غير

كان أوستن بعد دقائق في سقفه التي يقطنه فوق محل عمله في شارع ستانهوب بحي شيلسي . وقد خلع في سرعة معطفه الخفيف ، وإنه ليتغنى بأحدث نغمة من نغمات الرقص ، وأخذ معطفا قاتما من النوع الذي يقي من المطر . واستبدل قبعته بطاقية سوداء ودس في أحد جيوبه مصباحا كهربائيا صغيرا . ووضع في جيب آخر ما تأخذ العين من مظهره أنه علبة فضية للسكائر ،

ولكن تلك العلبة إذا فتحت على صورة أخرى لا يعرف سرها إلا شيرتن وحده — وذلك بالضغط على زر خفي — تكشفت عن مكان لم يكن يريب أحدا ، ووضع فيه شيرتن كل أدواته ومفاتيحه التي يكسر بها الأقفال والأبواب

ولما تذكر شيرتن تلك المغامرات التي اصطحب فيها تلك العلبة الفضية البريئة المظهر ، اندفع الدم في عروقه ، والتمعت عيناه ، وعاد مرة أخرى ذلك النص الذي لا يرعوي ولا يبالي شيئا ، والذي كان يقامر حيال القدر مقامرة ناجحة ، والذي ازدرى قوى القانون بأغنية من قلبه ، وابتسامة على شفتيه ، ووميضة في عينيه

واتخذ شيرتن سبيله ثانية إلى شارع دريكوت ، وكان يفكر في أحسن وسيلة يدخل بها المنزل رقم ١١ ! ورأى أن خير وسيلة أن يذهب مباشرة إلى باب الواجهة ، فإذا لم يكن قفله من أقفال «بيل» استطاع أن يفتحه بأحد مفاتيحه العديدة التي يحملها في علبته ، ولأنه يوقن أنه ليس ثمة في ظهره من قضيب أو زجاج ، وإلا لما استطاع أن يدخل منه وكيل صاحب الدار وعملاؤه . على أن في هذه الوسيلة عيبا . فليس مما جرت به عادة الناس أن يدخلوا بيتا غير مسكون بعد منتصف الليل بربع ساعة . و إذا رآه أحد فإن ذلك يبعث الريبة في الحال

على أنه كان لديه من ناحية أخرى المدخل الخلفي . ولكن كيف يصل إلى مؤخرة ذلك البيت ؟ ذلك ما لم يكن يعرفه حتى ذلك الوقت . مع أن شارع دريكوت يقع قريبا من منزله لم يكن يألف جغرافية هذه الجهة كل الألفة . ورأى أنه إذا عمل في جبرة غير معلومة فإنه بذلك يخطئ قاعدة من القواعد الأولى لأيام إجرامه حين كان يألف دائما مكان عمله قبل أن يشرع فيه ، صادرا في ذلك عما في نفسه من استعداد للتقش والزخرفة . ولكنه فيما تقضي به الظروف القائمة لا يجد مناصا من ذلك

بلغ شارع دريكوت فوجده مكانا كثير الحركة إذا قارنه بما كان عليه من هدوء حين مشى فيه من قبل . فلقد رأى سيارة أجرة ينزل منها ثلاثة أشخاص عند المنزل رقم ٩ وكان يسير نحوه شخصان على الجانب الأيسر للطريق . وكان يسير مبتعدا عنه عن يمينه كونستابل من البوليس . وفي هذه الظروف لم ينعطف شيرتن إلى شارع دريكوت بل عبر الشارع ومضى قدما في الطريق الذي كان يسلكه

وتبين أنها كانت حركة موفقة . فإنه رأى على خطوات منه ممرا ، بين بيتين وفكر

أنه من الممكن أن يؤدى إلى ساحة عامة لجميع البيوت فى شارع دريكوت . وما لبث أن اتجه نحو ذلك الممر ، فوجد أنه لم يخطئ إذ رأى نفسه بعد ثوان يقع لدى الباب الخلفى للبيت الحادى عشر ...

وما إن تلبث ليصغى إلى ماقد ينذره من أن أحدا قد يصر به ، حتى أخرج من أحد جيوبه قفازا من القطاط فلبسه ، ثم أخذ يفحص الباب ليرى ماهو صانع ، وفى يديه مصباحه وأدواته . وكان الباب مكينا . ولما تصوره من الداخل خيل إلى شيرتن أنه لم يكن ثمة قفل فحسب ، بل إن الباب تحصنه الأرتجة من أعلى ومن أسفل ، وذلك لايجعل فتحه مستحيلا وإنما بطيل أمد ذلك العمل .

وكان على جانب الباب شباك تكسبه المنعة قضبان قوية من الحديد . وقطب حاجبيه بعض الشئ ، فإن هذا الشباك الذى كان من الصغر بحيث لايتفذ منه إلا شاب نحيل الجسم ، محصن تحصينا قويا فيه نذير شؤم بما عسى أن تكون عليه النوافذ الأخرى . وقد رأى الحال كما توقع فإن تلك البيوت التى بنيت فى هذا القرن ، قد حصنت نوافذ طوابقها الأرضية أكثر مما يحصن دكان بائع الجواهر .

وفكر فيما إذا كانت نوافذ الطابق الأول قد جاءت على هذا الطراز ؛ ولكنه لم يستطع أن يراها ؛ فقد بلغ من حلكة الليل أن عينيه اللتين تعودتا فى سنوات من العمل أن ترى فى الظلام لم تستطيعا أن تنفذا فيه

ورأى لحسن حظه أن هناك ميزابا للمطر يرتفع حتى السقف . ولكم تسلق فى الماضى مثل هذا الميزاب . وبعد أن تحسس مبلغ متانته ، أخذ يتسلقه ؛ ولم يحس فى هذا من اليسر ما كان يحسه فى الأعوام السالفة ، ولكنه واصل التسلق حتى بلغ موضعا يستطيع منه أن يرى النوافذ

ورأى أنها كانت تحميها قضبان الحديد ؛ وليس هذا شأنها فحسب ، بل إنها تبعد عن أن يبلغها . ولما كان الحال كذلك . فإنه لم يجد فى التسلق جدوى ، فإذا فرض أن نوافذ الطابق الثانى لاتعنمها القضبان ، فليس فى وسعه أن يصل إليها .

وتزاحف هابطا إلى الأرض ، فإن كان لابد له أن يقطع قضبان الحديد فكلما أسرع فى البدء بعمله كان ذلك أوفى بالغرض

وبدأ عمله وقد اتخذ كل ماوسعه من حيطة ، ولما كانت أدواته منتقاة خير انتقاء فإنه لم يمض وقت طويل حتى أتى على أحد القضبان ، ولم يزل يقطع حتى استطاع أن يدخل الطبخ . وأخذ يتحسس سبيله إلى

الباب فإنه لم يجرؤ أن يبعث النور من مصباحه . واهتدى إلى الممر المؤدى إلى واجهة المنزل . وكان جو المنزل قابعا تنبعث منه رائحة عفنة . ولم يكن ثمة من صوت إلا ما تحدثه أسنان فأر خلف الوزرة الخشبية للجزء الأسفل من الحدر ووصوصة مرة أو مرتين ؛ أما عن آدميين فلم يكن هناك أدنى صوت ...

وأصغى لدى باب أول حجرة بلغها ولكنه لم يسمع شيئا ؛ ولف أصابعه الحساسة حول الأكرة وأدارها فى بطء حتى استطاع أن يدفع الباب ففتحه ؛ وأصغى ثانية فلم يصل إلى سمعه شيء ، وأرسل النور من مصباحه فوجد الحجرة خالية

ووجد بقية حجرات المنزل كهذه الحجرة ؛ فليس فى البيت كله نفس من السقف إلى الأرض ! ورأى أنه مما لا يصدق أن كل شخص قد احتفى فى مثل هذه السرعة فهو لم يستغرق إلا عشرين دقيقة على الأكثر ليصل إلى شقته وليجمع أدواته وليعود ثانية إلى هذا البيت الخالى . ولكن من كانوا فيه قد اختفوا فى هذه الدقائق . على أنه يسأل نفسه لم لم تكن فكرة اختفائهم بمثل هذه السرعة مما لا يصدقه ؟ إن الأمر لا يتطلب أكثر من دقائق للتسلل فى هدوء من البيت ... كلا إن الغرابة هى أنسب كلمة تستعمل فى هذا الصدد ؛ فقد كان اتفاقا غريبا أن يرحل هؤلاء الذين كانوا فى البيت فى تلك الدقائق القليلة التى غاب فيها عن المكان ؛ وكان غريبا حقا أن يرى من الصعب عليه أن يصدق أن رحيلهم فى هذا الزمن كان اتفاقا ؛ فإما أن يكون قد رآه أحد وهو ينظر إلى أعلى البيت فنبه ذلك من كانوا به ، وإما أن البيت الخالى لم يؤو أحدا قط !

ووقف يتدبر فى الأمر فى إحدى الحجرات العليا . إنه لا يستطيع أن يصدق على الرغم مما تنبئ به المظاهر أن البيت كان خاليا حين مر به من قبل فى هذه العشية ! وإنه ليوقن أنه لم يتخيل هاتيك الصرخات ولا هو أخطأ الجهة التى انبعثت منها .

وزم شفتيه فى عزم ؛ إن أوضح السبل أمامه أن يتقصى الآثار فى الأمكنة التى حل بها أشخاص منذ قريب ، ولكنه كى يفعل ذلك لابد له أن يطلق النور من مصباحه وهذا عمل محفوف بالخطر ، إذ أنه مهما يبلغ من حذره ، فإن من المحتمل أن يرى ذلك النور من خلال النوافذ التى لا تحجبها ستائر . وما إن يحدث ذلك حتى يرى المكان محاطا من أقطاره بنفر من البوليس . وأخذ يزن ذلك الخطر ، ولكن تذكر ألم الطفل جعله يصمم فضغط زر المصباح ، وأضاء النور

الخافت دائرة صغيرة من أرض الحجرة

وأخذ وظهره إلى النافذة ينقل النور فى بطء من بقعة إلى بقعة ؛ وكان يغطى أرض الحجرة تراب كثيف ، بلغ من كثافته أن قدميه كانتا تتركان فيه أثرا واضحا . ووقف فجأة كأنه تصلب ، فلقد استطاع أن يرى آثار أقدام إلى جانب ما تركت قدماه من أثر ، ورأى أنها واضحة وضوح آثاره ؛ ولم يعد بعد ذلك فى حاجة إلى برهان آخر ...

ولما ألقى نور المصباح الكهربائى فى دقة على هذه الآثار تبين أن قصة يمكن أن تقرأ فيها ؛ فلقد دخل الحجرة غيره شخصان آخران أحدهما طفل ؛ وكانت آثار قدمى الشخص الآخر عريضة كبيرة ، ولا يمكن إلا أن يكون رجلا ضخما ذلك الذى تركت قدماه هذه الآثار ...

ولما فحص شيرتن الآثار فحصا دقيقا أحس بشىء من الدهشة ، فمع أن آثار قدمى الطفل كانت صغيرة فإن إحداها كانت بعيدة عن الأخرى ؛ ثم إنهما توقفتا على بعد باردة من النافذة ولم تعودا صوب الباب

على أن دهشته ما لبثت أن زايلته ، وذلك حين استبان له تفسير ذلك فقد جرت الطفلة إلى داخل الحجرة يتبعها مطاردها (لأنه يعتقد أن هذه آثار قدمى بنت) وقبل أن تصل إلى هدفها وهو الشباك ، أدركها مطاردها فالتقطها وحملها وخرج بها من الحجرة

واتبع بنظره الأقدام وهى تخرج من الحجرة . ولم تكن القصة خارج الحجرة سهلة القراءة . فإن الآثار قد تناثرت هنا وهناك من الحجرة الثانية فى الواجهة إلى السلم ومن السلم إلى تلك الحجرة ، كما لو أن الرجل قد صعد السلم أكثر من مرة ليدخل الحجرة التى تقع عن يمين شيرتن ؛ كذلك قد أدت أقدامه هو إلى طمس تلك الأقدام بعض الشىء

واعتزم أن يفتش الحجرة الأخرى فى الواجهة ، واتخذ الحيطة كى لا تختلط قدميه بآثار ذلك الشخص . ثم دخل للمرة الثانية الحجرة التى تقع فى الجهة اليسرى للمنزل . وهنا كشفت أرض الحجرة عن قصة أخرى؛ تلك هى أن الطفلة قد حملت إلى تلك الحجرة ووضعت ممددة على الأرض إلى جانب الجدار الداخلى . ولا يمكن أن يعرف مقدار ما قضته هناك من زمن على تلك الحالة . ولكنه يعتقد أنها تخلصت من قيودها ونهضت على قدميها ، وجرت من تلك الحجرة إلى الحجرة المجاورة

ولم اضطرت إلى أن تفعل ذلك ؟ لم لم تندفع صوب نافذة الحجرة التى ألقيت فيها ؟ لقد استطاع أن يجد إجابة ممكنة على سؤاله هذا حين فحص الأرض بجوار النافذة .

إن الرجل كان يقف إلى جوار النافذة من حين إلى حين . ولعله كان يطل من النافذة على الشارع فى الوقت الذى استطاعت الطفلة فيه أن تفلت من قيودها ، ولعله رآها حين أوشكت أن تخرج من الحجرة فصاح مغضبا فانطلقت منها صرخة خوف واندفعت خارجة من الحجرة . ثم إنه جرى فى أثرها وأمسك بها فى الحجرة الأخرى ، فما كادت تصرخ ثانية حتى أطبق بيده على فمها ثم حملها بين يديه

وكان يرى هذا التفسير ممكنا ، حتى لقد أخذ يتساءل عما إذا كان عسيا أن يعلم جديدا من الأمر إذا فحص الحجرات الأخرى . إنه إذا سلم بأن ما استنتجه صحيح فلا يزال أمامه كثير مما يتطلب أن يعلمه فمن هى الطفلة مثلا ؟ ولم توجد فى بيت خال أسيرة كما ينبئ الحال ؟ ولماذا أسرت ؟ ولماذا جيء بها إلى المنزل الحادى عشر فى شارع دريكوت بدلا من أن تؤخذ إلى أى مكان آخر ؟ وأين يقع المكان الآخر ؟

ومع أنه فحص كل شبر من الغرفة لم يعد يجد هنا ما يكشف عنه . وعلى ذلك فقد اتجه إلى الطابق الأول ، حيث توجد حجرات فى مؤخرته كما يوجد فى واجهته . ولم يكن فى حجرات الوجهة ما عسى أن يدله على شىء ، فإنه كما تبين ، لم يدخلها أحد سواه . كذلك لم يدخل الحجرة الخلفية اليمنى أحد . ولكنه لم يكد يفتح الأخرى حتى تبين فيها آثار أقدام . وتعقب تلك الآثار ، فإذا بها تمتد من الباب حتى النافذة فى غير التواء ، تلك النافذة التى عزت عن أن يبلغها شيرتن حين تسلق الميزاب . وحين أطلق نور مصباحه رأى على أرض الحجرة ما بعث فى جسمه هزة الدهشة ، فقد كان يتناثر على الأرض بقايا محترقة من أعواد الثقاب وبقايا من أعقاب الدخائن . وكان ما أشعل من تلك الدخائن سبع عشرة دخينة ؛ ومن الناحية الأخرى كان عدد أعواد الثقاب اثنين وعشرين

ونجمهم قليلا . لماذا يجد اثنين وعشرين عودا لسبع عشرة دخينة ؟ لو عكست هذه الأرقام لأمكن أن يتضح تفسير ذلك . إن عددا من الدخائن فى بعض الحالات يشعل بثقاب واحد ، أو إن دخينة تشعل من بقية دخينة أخرى على التعاقب . وإنه كما تدل الحال إما أن تكون قد أشعلت بعض الأعواد لتتبين الوقت أو أن الرجل كان يدخن فى بطء شديد بحيث انطفأت دخينة أو دخينتان ولزم الأمر أن تشعلا من جديد . فإذا كان الفرض الثانى هو الصحيح ، أفدنا من ذلك دليلا على أن الرجل قد وقف مدة طويلة إلى جوار النافذة ، فإن استنفاد سبع عشرة دخينة لا يتم إلا فى زمن غير قصير

وكان السؤال الثانى الذى وجهه شيرتن

إلى نفسه ، لماذا يقف الرجل زمنا طويلا وربما بلغ ساعتين إلى جوار نافذة خلفية ؟ إذا كان حاله أنه كان يحس القلق خوفا من زيارة مباغتة فمن الواضح أنه كان أولى به أن يقف إلى جوار نافذة أمامية . أكان فى موقف حراسة أم كان فى موقف انتظار ليس غير ؟

وتواثبت إلى ذهنه الاحتمالات والتعليلات والاستنتاجات . وتدفقت فى ذهنه اليقظ كل تفاصيل هذه المؤامرة المحكمة . ونزل فى خطوات سريعة من هذه الحجرة الخلفية إلى المطبخ ، وهناك فحص الباب المؤدى إلى الفناء ، ونددت عن شفتيه كلمة إعجاب بنجاحه. لقد كان كل ما استنبط صحيحا ؛ ولقد وقف الآن على كثير من التفاصيل . وما تبقى بعد ذلك ، إذا استثنى أمراً واحدا ، سوف يكشف فى الصباح . أما هذا الأمر الذى يستثنيه فقد كان مع الأسف أهم ما فى الموضوع كله ، ألا وهو مكان الطفلة فإلى أى جهة أخذها الرجل ؟

* * *

دهش سير إدوارد ولاوبى وكيل البوليس إذ رأى أوستن شيرتن يزوره فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى

وحيا سير إدوارد زائرة شيرتن بقوله « طاب صباحك يا شيرتن ، ها أنت ذا خارج الدار مبكرا » وكان سير إدوارد وذلك اللص السابق قد تعارفا منذ استطاع شيرتن أن يساعد سكتلنديارد فى مسألة سنيك بينللى . وإنه ليمكن أن يقال فى كثير من الحق إن صداقة وثيقة قد أخذت تنشأ بين الرجلين ، وإنه على الرغم مما اتسم به شيرتن فى سابق حياته ، كان فى شخصيته من الظرف والمرح الذى يسرى منه إلى من حوله مالا يقوى معهما على الإعراض عنه إلا الفليلون

ولم يضع شيرتن وقتا فاتجه إلى غرضه من الزيارة قائلا : « أعتقد أنك بالضرورة تحيط علما بتفاصيل اختفاء بنت مورتن ميرى ديو ؟ »

وأجاب سير إدوارد فى جفاء « نعم لقد اختفت پاميلا ميرى ديو من حجرة نومها الليلة الماضية بعد أن أويت إلى مضجعها مباشرة ، ثم إنها فقدت بعد ذلك . وعلى الرغم من البحث فى تلك الجيرة ، ومما فعله رجالنا من استفسارات كاملة عند الناس فلم يعرف بعد أين توجد البنت ، وبقيت المسألة كما يتبين سرا عميقا . إنه من المؤكد أنها لم تخرج من المنزل من الباب الرئيسى ، لا ولا هربت من باب المطبخ . ويستحيل عليها أن تكون قد خرجت من النافذة ، وعلى ذلك فليس يعلم أحد كيف هربت »

وأشعل شيرتن دخينة ثم قال « ينبغى ألا تستعمل لفظة الهرب يا سير إدوارد . إن باميلا قد اختطفت »

وحملق وكيل البوليس فى وجه محدثه فى دهشة قائلا « لك الله ! ماذا تعرف عن هذه المسألة ؟ »

وقال شيرتن « قليلا » .. ثم إنه سكت لحظات ، وأخذ ينظر مفكرا إلى صاحبه ؛ وبدا عليه أخيرا أنه جمع رأيه فأخذ يتكلم فى بطء

« أجل يا سير إدوارد ... إنى أظن أنه بمساعدتك إياى سوف يكون لدى من الفرصة ما يمكننى من العثور على باميلا ميرى ديو ؛ ولكن يجب أن أطلب إليك أن تثق بى فترة . ولسوف أكون معك أمينا . إن فى ذهنى خطة للعثور على البنت ، ولكنها قائمة على تفكير مضحك يبلغ من السخف أن أخشى حتى التلميح إليه كيلا يسخر ذهنك المدرب من المشروع كله ، ولكنى لا أستطيع المضى وحدى فى الأمر فلا بد لى من المعونة » وأومأ وكيل البوليس برأسه ، ثم سأل محدثه فى هدوء قائلا « لست بالأحمق ياشيرتن فماذا تريد منى أن أصنع ؟ »

وضحك شيرتن ضحكة خفيفة وقال « إذن فإنى أحذرك أن طلبتى مما لم تسبق به سابقة ولن يدهشنى أنك سوف ترفضها بادئ الرأى . ومهما يكن من الأمر فها هى ذى : هل تمدنى برجل أو رجلين من البوليس لأغراض تعقبية ؟ »

ولم يجب سير إدوارد لتوه ، وإنما أخذ يفكر تفكيرا عميقا ، وإنه ليطرق المكتب أمامه بقلم الرصاص فى غير وعى . ثم إنه رفع رأسه ونظر صوب شيرتن قائلا « إن هذا حقا مما لم تسبق به سابقة ، وهو مطلب ليس يسهل إجابته إذ يأتى هكذا من شخص مثلك ليس ثمة من علاقة رسمية بينه وبين سكتلنديارد . ألا تستطيع أن تكون أوضح قليلا ، فتريني على وجه التحديد ماذا تريد أن يفعل هؤلاء الرجال ؟ »

وأجاب شيرتن قائلا « أريد أن تضعهم بحيث يراقبون بيت ميرى ديو فى طريق بورتسموث ، وأن تأمرهم أن يتعقبوا كل شخص يخرج من الباب الخلفى للبيت ؛ ويجب أن يلازم رجالك هؤلاء الخارجين كل الملازمة ، وأن يخبروك بالتليفون إذا اتجه شخص من هؤلاء إلى بيت ما ، وعلى رجالك بعد ذلك أن يراقبوا هذا البيت ، وأن يبلغوك ما يرتابون فيه هناك من حركة . هذا كل ما أريد »

ونظر سير إدوارد متعجبا ثم قال « وكيف يؤدى ذلك إلى العثور على باميلا

ميرى ديو ؟ »

فقال شيرتن « ستعلم يا سير إدوارد ذلك في حينه ، أخشى أن أراني مضطرا إلى أن أسألك أن تثق بي »

فأجاب وكيل البوليس بعد صمت قليل « إني أميل إلى الاعتماد على كلمتك يا شيرتن ولكي أصدقك ينبغي أن أقول إننا عجزنا عن أن نصل إلى أدنى شيء يمكن أن يؤدي بنا إلى معرفة مكان البنت . ولم أنس بعد مهارتك فيما وجهت به مسألة بينلي ، وعلى ذلك فإذا كنت قد أعددت الأمر لتكشف شيئا هاما يتصل بمسألة ميرى ديو هذه فلا بأس. ثم هز كتفيه واستأنف كلامه قائلا « سوف آخذ على عاتقي تبعة إمدادك بما تطلب من معونة »

وبدا الامتنان على وجه شيرتن ، ثم جهر في حماسة قائلا « إن هذا جميل منك يا سير إدوارد ؛ وإني آمل أن أريك قبل وقت طويل أن ثقتك بي لها ما يبررها »

وبعد دقائق حملت سيارة أجرة شيرتن ومعه ثلاثة رجال يرتدون ملابس عامة الناس. ولما بلغوا طريق بورتسموث ، وجه شيرتن الرجال إلى الجهة الخلفية للمنزل ، ولما أشار إلى مدخل الزبائن إلى منزل مرى ديو عاد يؤكد لهم جميعا ما لدقة مراقبتهم من أهمية عظمى . ولما تفرق الرجال ووقف كل منهم في المكان الذي اختير له بحيث لا يرى ، غادر شيرتن الفناء وعاد إلى طريق بورتسموث حيث توجه إلى المنزل رقم ٥ ودق بيده الباب ، ولما فتحه الخادم سأله شيرتن عن مسيرى ديو

فنظر إليه الرجل نظرة ارتياب وقال « أخشى أن مستر ميرى ديو سوف لا يستطيع لقاءك اليوم يا سيدي فإنه ... »

فقاطعه شيرتن في خشونة قائلا « أعلم ذلك ، إني قادم من سكوتلنديارد ؛ أخبر مستر ميرى ديو أن البوليس السري والنجتن يريد أن يتحدث إليه »

وتغير موقف الخادم في الحال . ثم تقدم شيرتن إلى غرفة استقبال . وما كاد يخرج الخادم منها حتى دخل مستر ميرى ديو ، وإنه ليكاد يعدو مسرعا ، وكان وجهه شاحبا مسكودا بسبب ما عاناه من قلق طول ليله .

وسأل شيرتن في لهفة « ألديك أخبار لي؟ »

وتردد شيرتن ولكن تردده لم يلبث إلا لحظة. فإنه لم يكن ليستطيع وقد تقدم إلى هذا الحد أن يتراجع الآن فقال « أعتقد أن لدي أنباء طيبة لك ياسيدي ؛ إن لدينا من الأسباب ما يجعلنا نعتقد أننا اهتدينا إلى مكان ابنتك ، وإننا الليلة بعد الحادية عشرة سوف نباغت بهجومنا ذلك البيت حيث

نأمل أننا سوف ننقذها »

وتمتم الرجل قائلا « شكراً لله » ثم نظر فى لهفة إلى شيرتن وسأله « ولكن لماذا لاتنقذونها الآن أيها الرجل ؟ فكر فيما عسى أن يصيب باميلا حتى ذلك الوقت » وأوشك فى لحرقه أن يتعلق بيدى شيرتن

وأجابه شيرتن فى هدوء : « إن لدينا من الأسباب مالا يهاجم معه ذلك البيت قبل هذا الموعد . وأظن أنك تستطيع أن تطمئن أنه لن يمس باميلا أذى مدة الانتظار » ونهض شيرتن قائلا « وأظن كذلك أنك تستطيع أن تنقل هذه الأنباء السارة إلى قومك يامستر ميرى ديو ؛ فإنى واثق أن ذلك سيريح نفوسهم ؛ وبهذه المناسبة إنهم ألا يخافوا إذا رأوا رجلا يراقب واجهة المنزل، فقد وضعنا رجلا هناك للحيطة فحسب »

ومد مرى ديو يدا مرتعشة وهو يقول: « شكرا لك يامستر والنجتن »

وقال شيرتن وهو يمد يده ليصافح الرجل « وبهذه المناسبة أيضا أقول إنى لو كنت مكانك لبقيت دائما إلى جوار التليفون لا أبتعد عنه أبدا »

وعاد شيرتن من طريق بورتسموث إلى محل عمله حيث قضى يوما من أتعس أيام حياته . إن حركاته جميعا قد قصد بها إلى خير مايرجى . ولكن إذا ثبت خطأ استدلاله ، وإذا كان فى تحمسه لإعادة باميلا إلى أبيها قد سمح لخياله أن يطغى على عقله ، فإنه يكون قد أتى فى هذا اليوم عملا من أحط ماعمل طيلة حياته ، وذلك أنه بث أملا كاذبا فى قلب والد حائر

وظل يقطع الساعات جيئة وذهابا فى حجرة عمله الصغيرة ؛ وبدت له تلك الساعات كأنها أيام . وكلما دق جرس التليفون اندفع صوب جهازه

دقت الساعة الثانية عشرة ، ثم الواحدة ثم الثانية ، ولم يتلق شيئا . وأخيراً كلمه أحد الرجال الثلاثة فأنبأه أن خادم ميرى ديو ، غادرت طريق بورتسموث لتزور بيتا فى كامبرول . وسأله شيرتن هل يقع ذلك البيت فى حى مزدحم بالسكان ؟ فأجابه الرجل أنه مزدحم جدا . واستنتج شيرتن أن بنت الخادم تقطن هناك ولا أكثر من ذلك .

ونفس شيرتن عن ضيقه بكلمات حين وضع سماعة التليفون ، فليست هذه الأنباء ما أمل أن يسمعه .

ومضت ساعة أخرى . ودق جرس التليفون مرات أخرى ولكنها كانت لأمور تتصل بعمله . ودقت الساعة الثالثة . وبعد ذلك بعشر دقائق اتصل به رجل آخر من الثلاثة .

لقد غادرت امرأة طويلة القامة عادية

الهندام بيت ميرى‌ديو بعد الساعة الثانية مباشرة . ولقد تبعها جريا على ما لديه من تعليمات فرآها تركب فى سيارة عامة حتى فكتوريا ومن هناك ركبت فى قطار إلى إبسوم ؛ واتجهت ماشية حتى بلغت جوسقا أنيقا يقع غير بعيد خارج إبسوم ، وقد فتحت لها الباب سيدة حسنة الهندام

فأمره شيرتن قائلا : « إبق هناك لاتبرح . تعقب أى شخص يخرج ومعه بنت صغيرة » ثم ألقى شيرتن السماعة وخرج يعدو من حجرة عمله

وكان قد أعد سيارته من قبل ووضعها قريبا منه . وأسرع فركبها وانطلق مسرعا إلى طريق بورتسموث . ولم تمض إلا دقائق حتى أخذ معه ميرى‌ديو ، وأسرع صوب إبسوم

وظل ميرى‌ديو يستفهمه ؛ ولكن شيرتن لم يشأ أن يجيبه . وكان كل ما قاله له : « إنها إما أن تكون أنباء سارة أو لاتكون »

وبلغ إبسوم فى وقت قصير جدا .

وذهبا إلى الجوسق . وكان رجل سكتلنديارد على مقربة منه ، فأشار إليهما بعلامة مؤداها : « لم يتغير شىء »

وسار شيرتن إلى الباب الصغير يتبعه ميرى‌ديو ، ودق شيرتن الباب ، ففتح من غير إبطاء . ووقف فى مدخله امرأة حسنة الهندام

وصاح ميرى‌ديو مندهشا « إيفا ! »

وابتسم شيرتن ابتسامة الرضا ، وتمتم لنفسه قائلا « إنها أنباء سارة » ، وهو يخطو متئدا نحو مقعد على خطوات

* * *

« إن إيفا هى زوجته المطلقة » ذلك ماراح يحدث به شيرتن سير إدوارد حين أخذ يقص عليه كل ماحدث . ومضى يقول « ولقد قرأت تفاصيل طلاقها قبل أن أزورك هذا الصباح »

وأجاب قائلا وفى صوته شىء من الامتعاض « ولكن كيف أمكنك أن تستنتج تفسير هذا السر الغامض ؟ كيف عرفت كل هذا فى حين أننا هنا لم نعرف شيئا ؟ »

وقص عليه شيرتن ما حدث له فى الليلة الماضية ، وراح يقول « هكذا كما ترى ياسير إدوارد أنه من الواضح أنها اختطفت وأن الذى اختطفها هو ذلك الرجل الذى وقف نحو ساعتين إلى النافذة الخلفية للبيت الخالى فى شارع دريكوت . وكان ينتظر — أو هكذا كان اعتمادى — إشارة من شريك له فى بيت مرى ديو . وحين تلقى هذه الإشارة أشار هو بدوره كذلك إلى رجل ثان كان قد وضع لدى الباب الخلفى للبيت الخالى . ودخل هذا الرجل الثانى فناء بيت

ميرى‌ديو ومعه سلم يطول ويقصر وقد مده إلى نافذة باميلا ، وصعد وربما أنه استطاع بذلك أن يلفت نظر البنت فصعدت إلى النافذة وفتحتها ، وعند ذلك أمسك بها أو استعمل مخدرا ، ورفعها إلى عاتقه ، وأغلق النافذة ، ونزل . ثم إنه أوى إلى البيت الخالى ومعه البنت والسلم حيث قابله الرجل الأول

« ولقد وضع السلم فى أحد مخازن البيت الخالى ولا يزال هناك . أما البنت فقد غلت وقيدت وحملت إلى غرفة فى أعلى المنزل وفى تلك الأثناء خرج الرجل الثانى إلى مكان ما حيث أعدت سيارة . وفى موعد محدد بعد بضع ساعات اتجه الرجل الثانى بالسيارة إلى شارع دريكوت وتلبث قليلا حتى رأى الشارع خاليا فوقف عند رقم ١١ . وما أن فعل ذلك حتى برز الرجل الأول ومعه باميلا وركبا السيارة وانطلقا بعيدا عن المكان

« وما كادت تخطر على بالى فكرة الاختطاف حتى أصبح كل ما بعدها يسيرا ، فإن بقايا الدخان قد دلتنى على انتظار الرجل لدى النافذة لينلقى الإشارة . وزاد يقينى ما وضع فى الباب الخلفى من زيت كى ينفتح فى يسر وكيلا يحدث أى صرير . كما أن بقايا الدخان من النوع الآخر قد دلتنى على وجود رجل ثان

« وكانت دراستى بقايا الدخان أول ما جعلنى أتجه بتفكيرى إلى أن زوجة ميرى ديو لها يد فى هذه المسألة فإنها كانت دخان عبد الله ، وكانت أعواد الثقاب من الشمع ، ولا يقترن المرء على أى حال دخان عبد الله ولا أعواد الشمع بمحترفى اختطاف الأطفال . وأخذ يبدو لى الاختطاف أقرب إلى أن يكون انتقاما شخصيا ، وكذلك أوحى إلى انتظار ذلك الشخص إشارة فى الجهة الخلفية ، أن الطفل أو الطفلة اختطفت من أحد البيوت فى طريق بورتسموث

« وما إن بلغت منزلى وهذه الأفكار فى رأسى حتى نظرت فى الدليل المحلى ، وحين وقعت على اسم ميرى‌ديو رأيت أنه يقيم فى منزل يقع خلف البيت الخالى مباشرة فى شارع دريكوت وتذكرت بعض الشئ قضية الطلاق بينه وبين زوجته ، ونظرت فى الصباح فى تفاصيل القضية فرأيت أنه صاحب الحق فى حضانة الطفلة

« واستطعت أن أتخيل شعور أم تحرم من طفلتها ، وأدرت فى رأسى ما إذا كانت هذه الأم قد طلبت إلى أحد أصدقائها أن يدبر هذا الأمر ؟ وإن هذا التفسير ليتفق مع وجود ذلك الشريك الذى أشار من بيت ميرى‌ديو

« ذلك ما جعلنى أحاول محاولتى ؛ لقد أخبرت ميرى‌ديو أن البوليس ربما عثر

على الطفلة الليلة ، وطلبت إليه أن يذيع هذا النبأ السار فى قومه ، مؤملا أن يعمد الشريك إلى إخطار الفاعل الأصلى ، وهذا ماحدث كما تعلم . وطلبت إليه أن يظل قائما لدى التليفون حتى لايتخذ التليفون أداة للصلة بينهما »

فأجابه سير إدوارد قائلا وهو ينظر إليه نظرة تهكم « يالك من لص مقتحم أصبح بوليسا سريا ! »

فاحمر وجه شيرتن وتمتم بقوله « أكاد أسمى نفسى بوليسا سريا » . ثم توقف وفكر فى عمق وعاد يقول : « ربما كان ذلك لأنى وقد كنت مجرما سنوات طوالا ، أصبحت أحد من اليسير على أن أستنبط الجوانب الإجرامية فى كل مسألة »

وانتهى سير إدوارد بهذا التعليل ثم قال « مهما يكن السبب ياشيرتن فخذ هذه الكلمة منى ، ذلك أنك ، إذا أردت ، تستطيع أن تكون بوليسا سريا بارعا »

وابتسم سير إدواردوهو يمد إليه يده قائلا : وعلى أى حال فقدأسديت اليوم صنيعا كريما لعدد من الناس »

« زو القناع »

خطأ فظيع — الحل

كانت النافذة مغلقة ، فقد فتحها رجل البوليس ، وقد استوثق من أن الزوج والطبيب لم يمسا شيئا فى الحجرة غير التليفون والجثة ، ولذلك أيقن أن قصة الشبح مخترعة . وقد أطلق الزوج الرصاص على زوجته متعمدا ؛ إذ لو كان أطلقه على الشبح الواقف أمام النافذة كما زعم لكسرت إحدى الرصاصات على الأقل زجاج النافذة وقد اخترقت الجثة !